الباب الرابع
الدعوة

دعوة المسيحية

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التي لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها، ونعني بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية في الحوادث الإنسانية الكبرى،فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التي تمُهد لحدوثه، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه.

وليست المسيحية شذوذاً عن هذه القاعدة، بل هي من أقوى الظواهر التي تؤُيدها وتسري في مسراها، وسنراها، وسنرى بعد الإحاطة بالفصول السابقة، والفصول التالية أن الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين، وأن العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئاً فشيئاً إلى وجه العصر الحديث، وسنرى غير مرة في هذا الكتاب أن الدعوة المسيحية جاءت في إبانها وفاقًا لمطالب زمانها.

وليس أقرب إلى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله في كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة، ونهتدي بهذه الآفات إلى علاجها الموكول إلى العقيدة.فما هي آفة العصر التي برزت في التاريخ، واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين، أو من غير طريق الدين؟

كانت له آفتان بارزتان: إحداهما تحجر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها إلى المعيشة المشتركة في بقُعة واحدة من العالم المعمور، وعلى الخصوص تلك الأقاليم التي نسميها اليوم بالشرق الأدنى.

تحجرت الأشكال والأوضاع، وغلبت المظاهر على كل شيء، وتهافت الناس على حياة القُشور دون حياة اللباب، فكل معاني الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات، وانتقلت الحضارة من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد، كما يحدث دائما في أعقاب الحضارات، تبدأ في عالم الفكر والوجدان، ثم تستفيض العمارة فتميل إلى التجسم والتضخم، وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهرالمادة والماء.

تجمعت الثروة والكسل في ناحية، وتجمعت الفاقة والجهد المرهق في ناحية أخرى، فغرق السادة في الترف، وغرق العبيد والأرقاء في الشقاء، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء!

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالاً ومراسم خلوا من المعنى والغاية، وتحجرت معه الشرائع والقوانين، فلم يكن غريباً أن تنقش على حجارة، وأن يرتفع ميزانها في يدي عدالة معصوبة العينين، وأن تفرغ الكفتان فتستويان، لأنهما فارغتان!

وتحجرت العقائد الوثنية في الدولة الرومانية، وتحجرت العقائد الكتابية بين بني إسرائيل، فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق، وأصبحت التقوى علما بالنصوص، وبحثاً عن مراسم الشريعة، وغلب المظهر وإن اختلفوا على اللفظ والتأويل.

أشكال وقشور، لا جوهر هناك ولا لباب.

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة، وبلغ الحس بسوئها غايته، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون في نطاق واحد، ويخضعون لحكم واحد، فلا فكاك منه بحال.

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة، ومن وراء ذلك باطن هواء وضميرخواء، فلا جرم يكون خلاصها في عقيدة لا تؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة الضمير، ولاتعرض عن شيء كما تعرض عن المظاهر، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل.

عقيدة قوامها أن الإنسان خاسر إذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه، وأن ملكوت السماء في الضمير، وليس في القصور والعروش، وأن المرء بما يضمره ويفكر فيه، وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب.

هل كانت للدنيا آفة غير آفة المظاهر والتناحر على المظاهر؟وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص؟

وهل كانت المسيحية إلا العقيدة التي تدعو إلى خلاصها من حيث يرُجى، وهيهات لها في غيره خلاص؟

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد، واتسم العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم.

الروماني سيد العالم بحقه، والإسرائيلي سيد العالم بحق إلهه، واليوناني والآسيوي والمصري كل منهم سيد الأمم، وكل منهم مثال الهمجية، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين، والعبد يمقت السيد مقت الموت، أو يفضل الموت على الرق الذي يجمع عليه بين الذل والألم والجوع، وأبناء الأمة الواحدة طوائف تشيع بينها التهم وتعمها البغضاء.

ويأتي إلى هؤلاء البشير المنظور، فماذا يقول لهم إن لم يقل لهم إن لله رب بني الإنسان، وإنه هو ابن الإنسان، وإن الحب أفضل الفضائل، وأفضل الحب حب الأعداء، وإن الكرم أن

تعطي فوق ما تسأل، وأن تعطي بغير سؤال، وإن ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال، وإن ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وإن المجد الذي يتنازعه طلابه لايستحق أن يطلب، وإن المجد الذي يستحق أن يطلب لا موضع فيه لنزاع.

ولم يأت هذا البشير فضولاً على غير انتظار: أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن، وأبناء الأقوام ينتظرون شيئاً لا يعرفونه، ولكنهم يعرفون أن زمانهم لا يطاق، وأن حالهم لا بد لها من تحويل.

أفلست العبادات، وجاء أحد المعبودين – قيصر رومة – فأحرق الأسفار والنبوءات، ولم يبقَ منها إلا ما هو أقرب إلى الفن في محراب أبولون إله الفنون.

أما العبادة التي لم تفلس، فقد كان رأس مالها كله نسيئة منتظرة، وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق، ولا يمجدها المنكِر، وإنما هو خلاف على العلامات، وعلى مصداقها من العيان والسماع.

لقد كانت الدعوة طباق الزمن، وقد بدأت في أوانها لم تتقدم ولم تتأخر، وكفى بذلك برُهاناً على موقعها الصحيح من التاريخ، فقد كان بلاء الناس أنهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم، فَجَاءَهم الرجاء الذي يصلح لذلك البلاء، بشارة لا تبالي أن يخرب ظاهر الدنيا كله إذا سلم للإنسان باطن الضمير.

وهذه هي دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذي سيقت إليه،ولو لم تكن هي طلبته يومئذٍ لما استولت عليها أربعة قرون.

وقد لقيت الدعوة أشد ما يلقاه دين من مقاومة، فلا يفهم من هذا أنها شاعت في العالم الإنساني على الرغم منه أو على غير حاجة منه إليها، فإنما الدين المطلوب هو الدين الذي تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه، وليس هو الذي يقبله الناس جميعًا طائعين مستسلمين كأنه غني عمن يدعو إليه، وما من دعوة قط تستغني من مبدأ الأمرعن الدعاة.

ولقد تصدى رسول الإخاء والسلام لدعوته، وهو يعلم أنها أخطر الدعوات، وأنها

أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة، لأن الذي يدعو إلى الإخاء يدعو إلى اقتلاع جذورالبغضاء، والذي يدعو إلى السلام يدعو إلى تحطيم سلاح الأقوياء، وليس اقتلاع جذورالبغضاء بالأمر الهين، وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة حالم، وليس السبيل إلى ذلك سبيل الرضا والوفاق.

لهذا كان يقول:»جئت لألقي على الأرض ناراً فحبذا لو تضطرم» وكان يسأل تلاميذه وسامعيه: «أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلامًا»؟ ثم يبُادر فيقول: «كلا!وإنما هو الصدام والانقسام خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين، واثنان على ثلاثة، ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها،وتنقسم الحماة على الكنة، والكنة على الحماة».

ولقد كان كلام كهذا يقُال على ألسنة بني إسرائيل كما قال ميخا: «ما في الناس من مستقيم، كلهم يكمن للدماء، وينصب الشباك ... لا تأتمنوا صاحباً، لا تثقوا بصديق، وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك، إن الابن بأبيه مُستهين، وإن البنت على أمها ثائرة ... والكنة على الحماة، وللإنسان من أهل بيته أعداء».

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفًا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر في سبيل الخير، ومن البغضاء في سبيل الإخاء، ومن الحرب سعياً إلى السلام.

وقد صحت نبوءة الرسول في بني قومه فناصبوه العداء، لأنه يبسط الدعوة إلى الإخاء، ويعم بها «طيور السماء» وهم رمز للطراق في جميع الأرجاء.

ومن الواضح أنه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا إليه واتبعوه، ولكنَّ هم مدعوون إلى وليمة يرفضونها، فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس، وقد أرسل الداعي عبده في طلب ضيوفه «فقال هذا: إني اشتريت حقلًا، وعليَّ أنْ أخرج فأنظره ... وقال ذاك: إني اشتريت أزواجًا من البقر، وسأمضي لأجربها... فغضب السيد وقال لعبده: اذهب عجلًا إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات إلي منتراه من المساكين ... فَعَاد العبد وقال لسيده: قد فعلتُ كما أمرت، ولا يزال في الرحبة مكان قال السيد: فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلئ بيتي، فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء».

ويمكن أنْ يقُال في وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحُصى على حسب النظرة التي ينظر بها القارئ إلى كلام المسيح في الأناجيل.

يمكن أنْ يقُال إنها دعوة إلى حينٍ ينتهي وشيكاً بانتهاء العالم كله في أمد قريب، ويمكن أن يقُال إنها دعوة ملكوت يدوم ولا يعُرف له انتهاء.

ولكننا على التحقيق نطُابق جوهرها كله إذا وصفناها بأنها «تغيير وجهة» وافتتاح قبلة، ولا سبيل إلى الجمع بين الوجهتين، ولا إلى التردد بين القبلتين، فلن يخدم أحد سيدين....

قبلة الروح أو قبلة الجسد.

قبلة الله أو قبلة «مأمون[1]» إله المادة والمال.

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب.

هنا وهناك...

فالمهم هو الاتجاه أين يكون، وإلى أي أمد يدوم، وكل ما يلي ذلك من تفصيل فهوخطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدارظهره لما وراءه، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين، ولا بد من خيرة بين السيدين!.

1 كلمة آرامية ترمز إلى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية، وتطلق الآن في اللغات الأوربية على إله المادة والمال.

أختيار القبلة

كان الموقف – كما قدمنا – على مفترق الطريق، وكان على السالك أنْ يختار وجهته وقبلته، ويحسب لها كل حسابها، فيأخذها بكل ما لها وما عليها، أو يرفضها بكل مالها وما عليها، ويجمع قلبه كله في خدمة الرب الذي يعبده، فليس في مقدوره أن يعبد ربين، وأن يدين بالخدمة والإخلاص لسيدين.

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها، ويزول اللبس عنها، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والأضداد، لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم.

إذا كان الجيل مُقبلًا على محراب «مامون» بقلبه وقالبه، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب.

إن عباد «مامون» غارقون في هموم الحطام، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام، فالذي يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب، ولا أنقاض لأركانه وأوثانه، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان.

أو كما قال لهم الرسول البشير:

«الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس، وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل، وسليمان في كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها، فإذا كان العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويطرح غدًا في التنور يلبسه الله، فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلي الإيمان...»

نعم. وإذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش، فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى ... اطلبوا كنوزًا لا تنفد في سماواتها، حيث لا تناله ايد السارق، ولا يبليها السوس.

من استدبر قبلة «مامون» فهذه هي القبلة التي يتجه إليها، وهذه هي غايتها القصوى، وإن لم تكن هي كل خطوة في الطريق.

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول:

ما هو بقادر أن يكون لي تلميذًا من لا يقدر على أن يبغض أباه وأمه وامرأته وبنيه وإخوته، بل يبغض نفسه ...

وما هو بقادر أن يكون لي تلميذًا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعني في طريقي.

قائل هذا هو القائل:

أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يسيئون إليكم، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك، وكل من سألك فأعطه، ومن أخذ ما في يدك فلا تطُالبه، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم، وأي فضل لكم إن أحببتم الذين يحُبونكم؟ إن الخطاة ليحبون من يحبهم، وأي فضل لكم إن أقرضتم من يردون قرضكم؟ إن الخطاة ليقرضون من يقارضهم، بلتحبون أعداءكم، وتحسنون وأنتم لا ترُجون أجركم ...وقائل هذا هو القائل:

إن أخطأ أخوك فوبخه، وإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات وتاب إليك سبع مرات فتقبل منه توبته.

وهذا نقيض ذاك:

هذه الرحمة التي تعم الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التي تشمل بها أحب الناس إلى الناس: الآباء والأمهات والأبناء وذوي الرحم والقربى.

إنهما تتناقضان غاية التناقض إلا على وجه واحد، وهو توجيه النظر إلى قبلة غيرالقبلة ووجهة غير الوجهة، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التي تستدبرها.

وإذا افترقت الطريقان، ووجب عليك أن تمضي هنا أو هناك، فلا جناح عليك أنت مضي حيث سددت خطاك، ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك.

وما من أحد يأبى أن يحُب ذويه، وأن يحبه ذووه إذا ساروا حيث سار، واستقاموا معه حيث استقام، فليس عن هذا يجري الحديث، ولا في هذا موضع للنصيحة والتفضيل، وإنما يجري الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان.وإنما يجري الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان، وحيث تمضي هنا مع لله وتمضي هناك مع مامون.

ولا تناقض في هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح، أو آية من تلك الآيات،فكلها على نهج واحد من أول الطريق إلى غايته، ولهذه الغاية القصوى ينبغي أن يتحول من يممَها بخُطاه، وآثرها بهواه.

وفي مثل من الأمثلة التي تعمر بها أقوال المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأنْ يحسبوا النَّفقة كلها قبل بناء حجر في البرج الشامخ.

من منكم – وهو يريد أن يبني برجًا – لا يجلس ليحسب نفقته، ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله؟

فهذا حساب التكاليف جميعًا قبل وضع الحجر الأول في أساس البناء، وإلا فلا حجر، ولا أساس، ولا برج هناك، وخير لمن تخذله القدرة، وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء.

فمن نظر إلى الأرض فرأى شعاباً تتقاطع، ومفارق تختلف، فليرفع نظره من تلك الشعاب، ولينظر إلى الأفق الذي تنص إليه الركاب، فهناك القبلة التي يتلاقى عندها ماتشعب، وينتهي إليها ما اعوج أو استقام من الدروب.

ولقد كان المستمعون إلى السيد المسيح، وأولهم تلاميذه وأتباعه، يعُجبون منه لأمرين: ترحيبه بالأطفال الصغار، وخطابه للمنبوذين المحقرين، فانتهرهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم:

«دعوا الأطفال يأتون إليَّ ولا تمنعوهم، فمن لم يقُبل على ملكوت الله طفلاً فلن يدخل إليه».

وقال لقوم أيقنوا أنهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب:»صعد اثنان إلى الهيكل يصُليان، فريسي وعشار.

فأما الفريسي فراح يقول في صلاته: حمدًا لك يا إلهي! إنني لست كسائر هؤلاءالخاطفين الظالمين الزناة، ولا كمثل ذلك العشار، أصوم في اليوم مرتين، وأؤدي حق العشر عن كل ما أقتنيه.

وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء، وقرع صدرهو ابتهل إلى الله: ارحمني يا إلهي أنا الخاطئ. فهبطا إلى بيتهما، هذا مستجاب، وذلك غير مبرور».

وتكررت هذه الأمثلة، فتكرر معها العجب من المستمعين إليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه، ولو أنهم إذ كانوا يعُجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته،واستقبلوا قبلته، لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره إلى بعيد، وأن يزهد في يومه، ثم يمتد بالرجاء إلى غده، فإنما في الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب، وإنما يرُجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر إلا أن يزول.

وجماع القول أن الدعوة الجديدة كانت ككل دعوة جديدة غريبة مناقضة لما حولها، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها إذا نظرنا إلى القبلة التي تستقبلها، فهنالك تلتقي الشعاب، ويحسن المآب.

تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها في فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات، ولكنها كانت كافية، لأنها كانت في الواقع تجربتين ودعوتين، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة، وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى ابن مريم.

كان يوُحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذي لا يحُابي ولا يتردد، ينُذر كثيراًو يبُشر قليلًا، ويضع الفأس على أصل الشجرة، ولا يبُالي أن يلُقي بها حطباً في الأتون.

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون: وهما زكريا واليصابات.

وفي إنجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد في شيخوخة الأب والأم، جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية في نوبته، فأصابته القرعة لدخول الهيكل وإطلاق البخور،فطال مكثه في المحراب، وجمهور المصلين يترقب ويتعجب، حتى عاد إليهم صامتاً لايتكلم، فعلموا أنه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب، ثم رُوِي أنه بصر على يمين المذبح بملك واقف، فاضطرب وَعَرَتهْ رجفة، فقال له الملك:لا تخف يا زكريا، إن لله قد أجاب سؤالك، وستلد امرأتك ولدًا وتسميه يوحنا، وتفرح به، ويفرح به كثيرون، لأنه يوُلد من بطن أمه ممتلئاً بالروح القدس، ويرد بني إسرائيل إلى إلههم، ويتقدم بروح إيليا (إلياس) وقوته»...

وقد ذكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

وذكرت في سورة مريم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ

شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي
وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ
يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ
نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ
هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ
ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ
وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ
وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وقد نشأ الطفل منذورًا للبتولة، وذلك معنى وصفه في القرآن الكريم بالحصور،وكان عليمًا بالكتب الدينية، يسمعها من أبويه ويتلوها في خلواته، وكان كثير العزلة شديدًا على نفسه في تهجده ونسكه، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس في ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد، يصوم أكثر الأيام، ويقتات من الجراد والعسل البري، ويهيب بالناس في صوت قوي صارم: توبوا واستعدوا، قد وضعت الفأس في رأس الشجرة، وكل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتُلقى في النار. صوت صارخ في البرية كما قال الأنبياء الأقدمون.

ولم يكن يتقي حرجاً في كلامه عن ذي خطيئة أو دنس، فراح ينحى بهذا الصوت القوي الصراح على الملك هيرود، لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها لا يزال بقيد الحياة، فلما اعتقله الملك وجيء به إلى حضرته، لم يسكت ولم يكفف عن التنديد به وبأخته، وأمره بتطليقها فراراً من غضب الله.

وفي سهرة من سهرات اللهو التي تعود هيرود أن يحييها في قصره، رقصت بنت أخته «سلامة» بين يديه، فاستحفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤالها كائناً ما كان، فلم تسأله شيئاً غير رأس يوحنا في طبق، وأصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره، ونجا بفعلته لأن يوُحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض.

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم، كما يفعل الدينيون «المحترفون» عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون إليهم، ولا يعيشون في زمرتهم، فكان يوُحنا يصيح بهم: «ياأولاد الأفاعي، لا يهجسن بأخلادكم أنكم تنتسبون إلى إبراهيم،إني أقول لكم إن لله قادر أن يخُرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم».

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس أن الخلاص نعمة يسُبغها لله على من يشاء، ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية، وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم لله، ويرشهم بالماء، ويمسح على رءوسهم، فهم بعد ذلك أهل للدخول في زمرة التائبين، وطلاب الخلاص، ولو لم يكن لهم نسب في آل يعقوب وإبراهيم.

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية الشهوات، وعناد الغرور،ولكنها لم تذهب سدًى بين الدهماء التي لا تضلها أهواء السيادة، وبقي اسم يوُحنا مقدسًا محبوباً، يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه، فلما أراد الكتبة، والنامسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم: أجيبوني « أولاً»هل كانت رسالة يوُحنا من السماء أم من الناس؟ فلم يستطيعوا جواباً، لأنهم إذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم، وإذا أنكروها غضب الشعب عليهم، فصمتوا مفحمين.

وليس أدل على مكانة يوُحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه، وهو شديد الحذر من إغضاب ذوي الرأي والسلطان، فقد قال عنه:»إنه كان إنساناً صالحًا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض، وأن يتقوا لله». وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه، وهي شهادة للرسول، وشهادة على أنفسهم، وقد باءت دعوة الرسول الصارم بإحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص في عصره، فخرج الرسول الصارم من الدنيا، وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة إذا انحصرت في قبيل واحد، وأن الخلاص مرهون بمن يطلبه، ويخشى من فواته، ولو لم يكن من ذلك القبيل.

وللسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا، فلم يكن متأبدًا، ولا نافرًا من الناس، بل كان يمشي مع الصالحين والخاطئين، وكان يشهد الولائم والأعراس، ولم يكن يكره التحية الكريمة التي تصدر من القلب، ولو كانت فيها نفقة وكُلفة، ووبَّخ تلاميذه مرة

لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق إحدى النساء على رأسه قارورة طيب تشُترى بالدنانير، وقالوا: لماذا هذا السرف؟ لقد كان أحرى بهذا الطيب أن يبُاع ويعطى ثمنه للفقراء، فقال لهم – عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: «ما بالكم تزعجون المرأة؟ إنها أحسنت بي عملًا، وإن الفقراء معكم اليوم وغدًا، ولست معكم في كل حين».

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور، كما اصطدمت بهما تلك الصرامة، وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة، وتلك الصدمة، فقال:

« إن يوُحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب، فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فقالوا إنه إنسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة».

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها، وخرجت من التجربتين معًا إنسانية عالمية تنُادي من يستمع إليها، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها: دعوة الغيرة الصارمة الأبية، ودعوة الغيرة السمحة الرضية، ولو قدر لها أنْ تعيش في قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه، فلم يسمع بها العالمون.

الشريعة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهي من جانب البحث السياسي، أو جانب البحث الاقتصادي، أو جانب البحث الاجتماعي، أو الديني، أو الثقافي إلى نتيجة واحدة: وهيَّ أن ضحايا البذخ، والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد، وسوء الأثر حدا يفوق احتمالعصر واحد، فلا يطيق أنْ ينتقل بها إلى العصر الذي بعده دون أن يطرأ عليه طارئ، ولن يكون ذلك الطارئ غير طارئ انقلاب شامل.

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه في عصر واحد، وقد يقال إنَّ هم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية، فما كان البذخ إلا ضرباً من الرياء الاجتماعي؛ لأنّهم علق في جميع أحواله بفخفخة الظهور. وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف، وولعها بالرياء.

وفي عصر كذلك العصر تلزم الرسالة.

لكنّها لا تلزم لتأتي العالم بمزيد من الشريعة، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة، فقد تكون المصيبة كلها في تطبيق الشريعة إذا جرت على سُنةِ الرياء، وغلب فيه النِّفاق على الصدق والإنصاف.

إنَّما تلزم الرسالة في أمثال ذلك العصر، لتعُطي العالم ما يحتاج إليه، وتنقذ ضحاياه.

والآداب الإنسانية هي الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الإنسانية، ويشعر بتلك الحاجة العظمى.إنها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب إليه كل شعور، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين.

ويوشك مع الظلم أنْ يكون كل متهم مظلوما، لأن الجريمة كلها في جانب الحاكم لا في جانب المحكوم عليه.

وحيث يكون الظلم هو الآفة، فالمتهمون هم أولى النَّاس بالرحمة والعطف والإنقاذ.وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والإنقاذ في أحضان الدعوة الجديدة، أحضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة.

طوبى للحزانى، طوبى للمساكين، طوبى للجياع والظماء، طوبى للمطرودين فيسبيل البر، طوبى للودعاء والرحماء،»تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والمثقلين، احملواً نيري عليكم وتعلموا مني، فتجدوا راحة لنفوسكم، لأن نيري هين، وحملي خفيف.

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون أنهم جائعون، والأغنياء الذين لايعلمون أنَّهم معوزون، والمتجبرين الذين لا يعلمون أنَّهم مساكين، والمتكبرين الذين لايعلمون أنَّهم منكسرون».

***

واستجاب ضحايا الرياء لصيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم إلى العزاء، وعلى قدرما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء، والتقوى المزيفة، وربما كان الأصح أن الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم إليه، وشعورهم براحته ورحمته، وعلم أن الشكران على قدر الغفران، وأن الأمل في التوبة على قدر الكرم في المحبة، «مدينان، على أحدهما خمسمائة دينار، وعلى الآخر خمسون، ليس لهما ما يوفيان، فأجزلهما شكراً من سومح في الدين الكبير».

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب، ويطغى عليه الحرمان من جانب، ويعم الرياء في كلا الجانبين، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها: فتنة الغواية، وفتنة الأسرة المنحلة، وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة. والطمأنينة ألزم مايلزم المرأة في كل زمان.

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقاباً بعد أحقاب، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة أكامًا فوق آكام، فإذا حنان طهور يغمر ضعفها، ويجُبر كسرها،ويمسح اليأس من قرارة وجدانها، ويشيع الأمل في رحمة لله بين جوانحها، فعلمها درسٌ من دروس الحب القدسي ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين، وموازين المقسطين، وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرفة زالت شرائع الهيكل، وزالت شرائع رومة، وهي باقية عالية، صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه، تسكب عليهما الدمع والطيب، وتمسحهما بغدائر رأسها.

والتفت السيد إلى تلميذه، وإلى المتعجبين من حوله، يتساءلون: كيف يزعم أنَّه نبي، ويجهل أنها امرأة خاطئة؟ فقال:»أتنظر إلى هذه المرأة! إنِّي دخلت بيتك، فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء، ولكنَّها غسلتهما بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها،ولم تمنحني قُبلْة، وهي منذ

دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي، ولم تدهن رأسي بزيت، وهي قد دهنت رجلي بالطيب، ومن أحب كثيراً غفر له الكثير من خطاياه».

توبة صادقة، ورحمة مستجيبة لا غرو على الشريعة الكاذبة فرائسها، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها، وويل لمن يفتح باباً للتوبة والرحمة، ولا يبالي الأبواب التي فُتحت للنقمة والعقاب.

***

منذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته، أخذ على نفسه أن يعتزل «السلطة»، ويتنحى لها عن ميدانها، فلا يتصدى لها بإبطال أو بإنقاذ، لايبدلها، ولا يدعي لنفسه ولايتها، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة في زمنه، فإنَّه – كما تقدم – قد نشأ في دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمتحكمين، ما فاض من رومة الشرائع تملؤه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه، ولا حاجة إلى مزيد من الأحكام مع فساد الحُكام، فإذا وجب إصلاح بعضها، فالخير من إصلاحه لا يسُاوي جهد الحرب التي تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل، وعلى الدويلة الأدومية اليهودية التي تشايع الدولتين، وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين، ومن المحقق أن الشر الذي ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذي يتأتى من ورائه، إن تأَتَّى، وقد يدُرك بإصلاح الضمائر، وتهذيب الآداب الإنسانية، وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدي أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين.

إلا أنَّه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة – سلطة الدين قبل كل شيء – بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليدوالجمود.

جاءوا في ميدانه بعد أنْ ترَك لهم ميدانهم، ووقع الاشتباك الذي لا بد منه بين سلطة شعارها المبالغة في الاتهام، والبحث عن المخالفات والعقوبات، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين، وتمهيد سبل الرجاء في الغفران.

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم، وهي على كونها مصلحة مريحة، باب للفخر والكبرياء.

فجاءوا يسوقونه إلى حيث أبى أن يسُاق، وكان همهم الأكبر أن يثُبتوا عليه أن يبطل شريعة، أو يتصدى لتنفيذ ذريعة، فأعنتوا عقولهم في البحث عن المشكلات والألغاز التي يفُتي فيها بما يخالف الشريعة الدينية، أو القوانين السياسية، أو يفُتي فيها بما يخالف آداب الرحمة، ووصايا السماحة والصلاح.

برز له مرة واحد من جموع السامعين، فقال له: أيها المعلم! مر أخي يقاسمني الميراث. وظن أنه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه، فما زاد على أنْ قَال: أيها الإنسان، من أقامني عليكما قاضياً أو حسيباً؟!

وتعمدوا وهو في الهيكل أنْ يضطروه إلى موقف الحكم، أو إنكار الشريعة، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون دروسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة، وراحوا يتصايحون: أيُّها المعلم، هذه امرأة أخذت وهي تزني، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية، فماذا تقول أنت؟

ماذا يقول هو؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونه، وهو لا يملك أن يمنعهم، لو ذهبواَ بها إلى قضاتها؟ إن الشرَكَ مكشوفٌ على وجه الأرض، وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا، إنْ قال: ارجموها! فذلك حق الولاية يدعيه، وإنْ قال: أطلقوها! فتلك شريعة موسى ينُكرها في قلب الهيكل، فكيف الخلاص من جانبي الشرَكِ، ولو أنَّه مكشوف معروف.

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهي من القضية إلى حل لا يدعي به السلطة،ولا ينكرها، ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى، ولبثوا يترقبون،ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه إليه، وهو يستمع إليهم ويخط بأصبعه على الأرض، حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم، فوقف قائمًا ورد عليهم رياءهم في وجوههم، وكَسَر الشرَكَ بقدميه من كلا طرفيه، وهو يقول لهم:»من كان منكم بلاخطيئة فليتقدم وليرمها بحجر».

لا ينقض شريعة موسى، ولا يدعي تنفيذها، ولا يجامل رياءهم، بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان!

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه، فسألها سؤال العارف: أين المشتكون منك؟ أما دانك أحد؟ فقالت: لا أحد أيها السيد. فأرسلها وهو يقول: ولا أنا أدينك، فاذهبي ولا تخُطئي.

نعم، لا يدينها، ولا يحسب عليه أنه لا يدينها في تلك القضية، ولو كان هو قاضيها لأن القاضي لا يدين بغير شكوى، وبغير شهود وبغير بينة!

وتناول مسألة الزواج والطلاق، وقد بلغ من سهولتها في ذلك العصر أن تتصدع الأسرة، وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة في عرف قومها، فقال إن الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلها الإنسان، وقد جمعها الله، «ومن طلق امرأته إلا لعلة الزنا دفعها إلى الزنا، ومن تزوج مطلقة فإنه زانٍ».

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيقهين من متخذي العلم صناعة وأحبولة إلا ارتدوا منها مفحمين، وخرج منها مجيباً أحسن جواب بل أكرم جواب.

فلم يصعب عليه أن يحطم «الشرَك السياسي» الذي نصبوه له ليسمعوا منه إشارة بإعطاء الجزية، أو بعصيان الدولة، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر، ويكنزون منها الثروة والمال، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟

ولم يصعب عليه أن يسُكتَ الصدوقيين والفريسيين معًا، والأولون ينكرون البعث، والآخرون يؤمنون به جسديًّا وروحيًّا على السواء، فلما قيل له إن شريعة موسى توصي الأخ أن يبني بزوجة أخيه المتوفى حفظًا للأسرة، وسألوه: لمن تئول في يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة إخوة؟ خُيِّلَ إليهم أنه لن يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال جواباًيرُضي الصدوقيين، أو يرُضي الفريسيين، فكان جوابه مفحمًا لهؤلاء وهؤلاء؛ لأن الأحياء في العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم، ولا يتناسلون!

والحق أن الأناجيل لا تروي لنا من هذه المساجلات إلا ما نشهد أمثاله اليوم في كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيقهون لتعجيز المعلمين والوعاظ وإن اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين في كل حلقة على حسب الموضع والموضوع.

والحق أن قدرة السيح المسيح على الردود السريعة والأجوبة المُسكتة لهي دليل آخر إلى جانب أدلة كثيرة على «الشخصية» التاريخية، والدعوة المتناسقة، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين، بل هم يروونها، ولا يفطنون إلى أهم البواعث عليها في سياسة الرسالة المسيحية، فإن هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع، واجتناب التعريض له بالإبطال أو الإبدال، ووجهتها على الدوام أنها لا تدعي سلطة من سلطات الدنيا والدين، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم، وليست من ممالك الدول والحكومات، كذلك قال لكهان الهيكل، وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان، وعلى ذلك جرى أسلوبه في كل أمر وفي كل موعظة،

فهو أسلوب الآداب والمثل العليا، وليس بأسلوب النصوص والقوانين، وكلامه عن زنى المطلق، وعن زنى العين التي تقُلع إذانظرت نظرة اشتهاء، وعن خطيئة اليد التي تقُطع إذا وقعت في العثرات؛ لا يحمله أحدعلى محمل التشريع، وليس في مسلك المسيح كله في رسالته ما يجُريه مجرى الإلزام، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعاً مقصوداً بحروفه، وقل من الرواة من فرق في فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الإنسانية التي ترتفع إلى الأكمل فالأكمل، وتنفذ إلى المعاني من وراء الألفاظ، ويرجع الأمر فيها إلى ضمير يحُاسب صاحبه، ولا يرجع إلى قاضٍ يسم لعيناً، أو يدخل في الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء، ولو خلصت هذه المعاني إلى سامعيها جميعًا كما عناها السيد المسيح، لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل.

شريعة الحب

الجُمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر؛ فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص،يخُيَّل إليه أنها مقصودة لذاتها، فتصبح شغلًا شاغلًا له يمُعن في تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها، وينتهي الأمر به إلى اعتبارها مسألة براعة وفطنة،واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه، وإلا كان ذلك مطعناً في براعته وفطنته، وهزيمةً له أمام غرمائه المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات، ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها، أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها، ويحدث هذا لكل «شريعة» صارت إلى أيدي الجامدين والحرفيين، فقد أدركنا في مصر أنُاسًا من كُتَّاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود، اعتمادًا على هذا النص أو تلك الحاشية، وافتناناً منهم في عصر العبارات، ونبش الدفائن، وإقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة في ميدان الحوار ومجال اللف والدوران.

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين، فإنَّما الحساب كله للنص المكتوب من جهة، ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى، وإنَّ ما النَّفس البشرية هي الفريسة التي يتكفل العقاب باقتناصها، ويتكفل العلم بإغلاق منافذ النجاة في وجهها، ويقدح في غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب، وأن يرجع العقاب بغير فريسة، وتلك خيبة للشرائع والقوانين، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها!

فالشارع الماهر في عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل، واقتناص الضحايا.

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوُفروا لها الصيد، ويحُكموا من حولها لشبكة.

وقد تنتفخ الأوداج بهذا الفخر علانية، ويصُبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على إدانة الآخرين.

ويتمادى الأمر حتى تصُبح الاستقامة براعة في اللعب بالألفاظ، وتعجيزًا للجهلاء بالحيل والفتاوى، وحتى يزول الجوهر في سبيل العرض، ويزول اللباب في سبيل القشور، وتزول

الاستقامة وطهارة الضمير في سبيل الكلمات والنصوص، وتزول الحقائق في سبيل الظواهر والأشكال.

وإذا صار أمر الفضائل إلى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء، فإن غاية الصدق والرياء معًا شكل ظاهر باطنه خواء، فلا فرق بين المُرائي وبين الصادق في فضيلته، ما دامت الفضيلة جمودًا لا حس فيه، ولا حياة، ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام، ووراء الأوامر والنواهي، ووراء العقاب والاحتيال.

إن الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر.

وعالم الظواهر غير عالم الضمير.

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجهًا لوجه عند قيام الدعوة المسيحية، عالم كله قيود وأشكال.

وعالم طلق من القيود والأشكال، في ساحة الضمير.

روى إنجيل مَتَّى في الإصحاح الخامس أن السيد المسيح قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض، بل جئت لأكمل».

وروت الأناجيل أنه عمل في يوم السبت، وسخر من المحرمات التي لا تدنس الإنسان، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس.

فهل نقض المسيح من تقدموه، أو اتبعهم في كل ما أبرموه؟

إن شئت فقل إنه نقض كل شيء.

وإن شئت فقل إنه لم ينقض منه مثقال ذرة.

لأنه نقصشريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب أو شريعة الضمير.

وشريعة الحب لا تبُقي حرفًا من شريعة الأشكال والظواهر، ولكنها لا تنقض حرفًا واحدًا من شريعة الناموس، بل تزيد عليه.

وينبغي هنا أنْ نصُحح معنى الناموس في الأذهان، فإن معناه هو «القوام» الذي يقوم به كل شيء، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التي يقوم بها ضمير الإنسان مادام للضمير وجود، فلن يزال قائمًا- كما قال السيد المسيح - ما قامت الأرض والسماوات.

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا؛ لأنَّه جاء بشريعة الحب، وهي زيادة عليه.

إن النَّاموس عهد على الإنسان بقضاء الواجب، أما الحب فيزيد على الواجب، ولاينتظر الأمر، ولا ينتظر الجزاء.

الحب لا يُحاسب بالحروف والشروط، والحب لا يعُامل النَّاس بالصكوك والشهود،ولكنَّه يفعل ما يطُلب منه ويزيد عليه، وهو مستريح إلى العطاء غير مُتطلع إلى الجزاء.بهذه الشريعة – شريعة الحب – نقض المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر.

وبهذه الشريعة – شريعة الحب – رفع للناموس صرحاً يطُاول السماء، وثبت له أساساً يستقر في الأعماق.

وبهذه الشريعة – شريعة الحب – قضى على شريعة الكبرياء والرياء، وعلم النَّاس أن الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس، ووصْم الآخرين بالتهم والذنوب، ولكنَّها جُعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك، وللعطف على النَّاس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب.

وفي اعتقادنا أن شخصية السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وجلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة، شريعة الحب والضمير .

فكل كلمة قيلت في هذه الوصايا فهي الكلمة التي ينبغي أن تقُال، وكل مُناسبة رُويت فهي المناسبة التي تقع في الخاطر، ولا تصل إليها شبهة الاختلاق.

يلزم في شريعة الكبرياء من يتخذ الدين سبيلًا إلى التعالي على الآخرين، ويلزم في شريعة الحب من يقول لذلك المتعالي على غيره المتفاني بنفسه: «لماذا تنظر إلى القذى في عين أخيك ولا تنظر إلى الخشبة في عينك»؟!.

يلزم في شريعة الفرح بالعقاب، والسعي وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة في المواكب، ويخف إلى موقف الرجم كأنَّما يخف إلى محافل الأعراس.

ويلزم في شريعة الحب من ينهى ذلك الجمع المنافق، ويكشف له رياءه، ويرده إلى الحياء، وقد ارتد إلى الحياء حين استمع السيد ينُاديه: «من لم يخُطئ منكم فليرمها بحجر ...».

ويلزم في شريعة الرياء والكبرياء أنْ يفخر المصلي بصلاته، وأن يعُلن الصائم عن صيامه، ويتخذه زيًّا ينم عليه بعبوسه وضجره، ويلزم في شريعة الحب من ينهى الناسِّ عن صلاة الرياء وصيام الرياء، لأنهم يحُبون أنْ يصُلوا قائمين في المجامع، وفي زوايا الشوارع «ومتى

صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنَّهم يغُيرون وجوههم، ليظهروا للناس صيامهم، فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم، وأما أنتم فمتى صُمتم فادهنوا رءوسكم، واغسلوا وجوهكم، لا يظهر صيامكم للناس، بل لأبيكم المطلع في الصدور».

يلزم في شريعة الرياء والكبرياء أنْ يفخر المعطي بالعطاء، وأن يستطيل به على الفقراء، وأني صُوت قُدامه بالأبواق، ويعلن صدقته في الطرقات والأسواق، ويلزم في شريعة الحب أن تسر أعمال المحسنين، فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين.

في شريعة الكبرياء يتقي المُتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين، ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشارين والخطاة، وفي شريعة الحب والضمير يقُال للمترفعين بتقواهم ما ينبغي أنْ يقُال لهم: إنَّما يحتاج المرضى إلى الطبيب، وإنَّما يكون الحب على قدرالغفران.

وقد بلغت فتنة «الظواهر والأشكال» غايتها، وطغت من الهيكل إلى البيت، ومن المكتب إلى السوق، ومن المنبر إلى المائدة، حتى لقُمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم إلا بمقدار ما يتُلى عليها من الأوراد والعزائم، وما تحُاط به من الشعائر والمراسم، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم، فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير، وبحق يقُال للمتطهرين بغسل الأيدي والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة : « إن ما يدخل الفم لا يدنس الضمير، وإن الدنس إنما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والفسوق والكفران».

***

ومجمل القول أن الخير كله كان في حكم شريعة الظواهر والأشكال، شريعة الكبرياء والرياء، مسألةَ «امتياز رسمي» يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر، ويرجع الأمر فيه إلى الموروثات والمأثورات.

فالفضل بين الأمم «امتياز رسمي» مُحتكر لإسرائيل، لأنَّهم أبناء إبراهيم، والفضل بين الإسرائيليين «امتياز رسمي» مُحتكر لأبناء هارون وأبناء لاوي أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث، والفضل في الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون، أو فقهاء ذلك الزمان، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون وثيقة في صَك مرسوم تضمن الإيثار لذلك الشعب، وإن هبطت به أعماله دون سائر الشعوب، «فلا لأنكم أكثرالشعوب لازمكم الرب واختاركم، فإنكم أقل من سائر الشعوب، بل هي محبته وحفظهالقسم الذي عاهد عليه آباءكم».

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير، كانت كلمتها هي الكلمة التي تقُال في كل ما ادعوه، وما استأثروا به واحتكروه.

ليس الخير حِكرًا للنسب والسلالة بل الذي يعمل بمشيئة لله هو أخي وأختي وأمي، «إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة بالعراء».

وإنَّما الرحمة عمل، لا نسبة ولا حرفة. وضرب لهم مثلًا:»إنساناً خرج عليه اللصوص في الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه، وجاء لاوي فمضى ولم يلتفت إليه ... ولكن سامريًّا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه، وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق، وأولاه عنايته، ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين؛ لينفقها عليه، ويعنى به، ومهما ينفق عليه فهو مُوفيه عند مرجعه ...» قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل: «أي هؤلاء الثلاثة أقرب إلى ذلك الصريع الجريح»؟ والجواب الذي لا خلاف عليه بداهة أن السامري المنبوذ أقرب إليه من أبناء هارون ومن اللاويين المصطفين!

وراح يجُبهْ فطاحل العلماء التي اهين بما علموه وحفظوا وتفننوا فيه من ألغاز الفقه وأحاجي الشريعة، فقال لهم:» إن الدين بما تعمل لا بما تعلم». حذَّ ر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم في عملهم، وأن يدعوا مثل دعواهم: «لأنَّهم يحزمون الأوقار،ويسومون النَّاس أن يحملوها على عواتقهم، ولا يمدون إليها أصبعاً يزحزحونها، وإنَّما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم، يعرضون عصائبهم، ويطيلون أهداب ثيابهم، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع، ويبتغون التحيات في الأسواق، وأنْ يقُال لهم: «سيدي»! «سيدي»! حيث يذهبون ...

ثم يهتف بأولئك المنافقين التي اهين: «أيُّها القادة العميان الذين يحُاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل، إنَّكم تنفقون ظاهر الكأس والصحفة، وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة، ويل لكم أيُّها الكتبة والفريسيون المراءون! إنَّكم كالقبور المبيضة، خارجها طلاء جميل، وداخلها عظام نخرة».

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا، وسألوه: أيُّهما أعظم في النَّاموس؟ حسبوا أنَّه سينُقب بين السطور، ويطُيل البحث بين الأسراروالألغاز،

ولكنَّه ترك السطور والنصوص، وجَمع لهم الدين كله والكتب جميعًا في كلمات معدودات: «أن تحُب ربك بجماع قلبك، ومن كل نفسك وفكرك، وأن تحُب رقيبك كما تحُب نفسك».

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق، ولا تكونالعقبى أنَّه يهدر الفرائض والأحكام، وأنَّه يستبيح ما لا يبُاح، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون، كما يتشدد الإنسان حيث يحُاسب ضميره، ويصنع في سبيل الحب ما لا يصنعه في سبيل الواجب، وكل ما هنالك أن تصُبح الفضيلة وحي نفس، وحساب ضمير، ولا يصُبح قصاراها وحي القانون، وحساب الصكوك والشروط، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف.

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الأفعال والوقائع، ولأنَّه يحُاسب صاحبه على همساته ووساوسه، ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء.

«قيل للقدماء: لا تقتل، ومن يقتل وجب عليه العقاب. أما أنا فأقول لكم: إن من يغضب على أخيه باطلًا يأثم ويجُزى ... فإن قدمت قُربانك وذكرت حقا لأخيك عليك، فدع قُربانك أمام المذبح، واذهب قبل فصالح أخاك».

«وقيل للقدماء: لا تزنِ. أما أنا فأقول لكم: إن من ينظر إلى امرأة فيشتهيها فقدزَنىَ بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تلُقي بك في العثرات فاقلعها، وألقها عنك، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك..»

«وقيل للقدماء: لا تحنث. وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا، وليكن كلامكم كله: نعم نعم، لا لا، وما زاد على ذلك فهو من الشيطان».

«وسمعتم أنَّه قيل: عين بعين، وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر، ومن سخرك ميلًا واحدًا، فاذهب معه ميلين».

«وسمعتم أنَّه قيل: تحُب قريبك، وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وادعوا لمن يسُيء إليكم ويطردكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنَّه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين،ويرسل غيثه للأبرار

والظالمين، وأي أجر لكم إن أحببتم من يحبونكم، أليس العشارون يفعلون ذلك؟ فتعلقوا أنتم بالكمال، فإن الله كامل، يحُب الكمال».

هذه شريعة تهدم كُل عرف قائم، وتعصف بكل شكل ظاهر، ولكنَّها لا تهدم النّاموس، ولا تعصف بركن من أركانه، وقد تزيد فرائضه، ولا تنقص حرفًا منها، حيثَّ تنقلها من الأوراق ومناظر العيان إلى الضمائر والقلوب، لأن الإنسان يحُاسب نفسه إذا أحب حساباً لا تدُركه الشرائع، ولا يطلع عليه القضاء.

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع، وكان السجال بينهما هو السجال الذي تمليه شريعة الحب والضمير، وشريعة الظواهر والأشكال، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاة الرياء والكبرياء، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضًا غير مقصود في وجهته، أو جزافًا يقوله كل قائل ويأتي لغير مناسبة، ومن ثم نقول إن الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذاالبرهان، وإن المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق إن شاء؛ لأنَّه من وراء طاقة المختلق أنْ يلحق بطبيعة الشريعتين: شريعة الحب والضمير، وشريعة الرياء والكبرياء، ويدفع بهما حيث تندفعان، ويمُلي عليهما ما تسألان عنه، وما تجيبان.

تلك معالم واضحة، ومقاصد بيِّنة معروفة المنحى، فإذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم في مواضع اللبس على ذوي النية الحسنة، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا، وكل ما مشى في سبيل الظواهروالأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك، ولن يطول اللبس في معنى من معاني السيد المسيح إلا على عباد الألفاظ والنصوص، وليس من الإنصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص في الدعوة التي تزدريها وترجع بكل شيء إلى مقاصد الحب والضمير، ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة في الزق القديم، أو وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم.

كان «أوريجين» فيلسوفًا ملحوظ المكانة في تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية، ويرى الكثيرون أنَّه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد،ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده في حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين في عصره، غير مستثنى منهم أساتذته الأولون.

هذا الرجل قرأ في شبابه قول السيد المسيح إن أُنَاسًا يخصيهم الله، وأُنَاسًا يخصيهم النَّاس، وأُنَاسًا يخصون أنفسهم في سبيل لله، فحمله على معناه الحر في وَجَب نفسه ليقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن، ولكنَّه أدرك خطأه بعد ذلك، وعدل عن هذا الفهم الحرفي لأقوال السيد المسيح.

إلا أن ثبوت هذه الرواية في سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية في عصرها الأول، فقد كان الرجل يفقأ عينه إذاعلم أنَّها نظرت إلى امرأة نظرة اشتهاء، وكان يمسخ جسده مسخاً إذا راودته الشهوات،حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة، فإذا كان شاب في ذكاء «أوريجين» وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه، فلا عجب أنْ يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه في الفطنة والدراية.

لكن «أوريجين» نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا، وسبقه وجاء بعده أ نُاس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعاني، ولم يقصد الحروف حينِّ أوصى بكف الأعضاء عن نزغات الجسد، فلم يعنِ بفقء العين إلا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الإسكات، ولم يعن بقمع الجسد إلا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية، وكان كلمنت الإسكندري يقول بحق إن السيد المسيح لا يعني بنبذ المال أن نرفضه بتاتاً في جميع الأحوال، إلا لم يكن الإحسان فضيلة من أكبر الفضائل في الوصايا المسيحية،

وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه.

إلا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائماً بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال حكماء المسيحية، ولا يزال هذا الخلاف قائمًا إلى عصرنا هذا في الوصايا التي تدور على

رفض الحياة خاصة، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور«شويتزر» Schweitzer الذي يرى أن السيد المسيح قد أوصى النَّاس بتلك الوصايا، لاعتقاده أن الساعة قريبة، وأن الدنيا التي يهجرونها مقضي عليها بالفناء في مد يسنوات، فكل ما أوصى به النّاس فالمفهوم منه أنَّهم على سفر، وأن الزاد للعالم الآخرمن غير هذا الزاد الذي يدخره المدخرون للدنيا الزائلة.

وفي اعتقادنا أنَّه لا محل للخلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة، فإن كل دعوة في عصر المسيح، أو في عصرنا هذا، وفيِّ جهاد الدين أو جهاد الدنيا، تحتاج من الدعاة إلى شل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى، ونظام فرق الفداء في الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه، وأول أحكامه أنْ يفُكر «الجندي المجاهد» في الموت قبل تفكيره في الحياة.

إنَّ ما الخلاف على الوصايا حين تتجه إلى غير التلاميذ والرسل: إلى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها، ويعملون لأنفسهم، ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم، فهل يطلب من هؤلاء جميعًا أن ينقطعوا عن دنياهم، ويرفضوا حياتهم، ويتشبهوا بالطير والنبات في اعتمادهم على الغذاء والكساء؟

أقول حقا إنَّنِي أفهم وصايا السيد المسيح جميعًا، ولا أجد في فهمها صعوبة على الإطلاق، إذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- وإذا علمنا أنَّه - عليه السلام - قد قال كل شيء حين قال، ولخص حكمته كلها في هذا المقال: «ليس الإنسان للسبت، وإنَّما السبت للإنسان».

لقد كان هَم السيد المسيح في الإصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير.

كان همه أن ينقل الآداب من محور إلى محور، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد إذا كان انتقال المحور هو المقصود.

كانت العروض هي المحور الذي تدور عليه حياة الأمم والآحاد في عصره، فوجب أنْ يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة.

كانت «الأشياء» مقدمة على النّفس الإنسانية، فوجب أنْ تكون النَّفس الإنسانية مقدمة على الأشياء.

وجب أن يكون ربح النفس الإنسانية هو الغنيمة الكبرى، لأن من رَبحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم.

وإذا كان «الحطام» هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل: سيان من يطلبِّ الدرهم الواحد، ومن يطلب ملايين الدراهم، فكلاهما مداره خطأ وسعيه عقيم.

إذا كانت «الشهوة» هي محور الحياة، فسيان من يشتهي بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في طلب اللذة والغواية، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذي يدور عليه.

ولكنَّنا ننقل المحور، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق، فينتقل كل شيء، ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق.

إذا أصبح كسب النفس الإنسانية – كسب المحور – هو غاية الحياة، فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئاً من الأشياء.

إذا تغير المحور، فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط.

وإذا بقي المحور، فالبعيد كالقريب، والقريب كالبعيد.

وتغيير المحور هو الذي عناه السيد المسيح.

وتغيير المحور لازم في ذلك العصر، لازم في هذا العصر، لازم في كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجًا للرسالات، ولم تكن آخر الرسالات في الحياة الإنسانية.

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغُير المحور تغييراً آخر لو أنَّه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال، ورأى النَّاس يغرقون في تعذيب الجسد، ويفرحون بإطعامه للدود، وهم بقيد الحياة.

بل لا حاجة بنا إلى الفرض هنا، أو الاحتمال الذي يقبل الخلاف، فإن المسيح قد غَير المحور هذا التغيير في زمانه، غيره حين قَبِل إنفاق الدنانير في عطر تمسح به قدماه، وحين قبل أنْ يشهد الأعراس، ويضرب المثل لأتباعه في أفراح الحياة، وفي برَاءة كل فرح يأتي من القلب، ويسر الجسد، ولا يحزن الروح.

وما كان الإصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات: أنت تنهك نفسك لتكنز مليوناً، فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف، ولا تزيد.

أنت تتهالك على جميع اللذات في جميع الأوقات، فتهالك عليها أيامًا في الأسبوع، أوتهالك على بعضها دون سائرها في جميع الأيام.

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء، فاشتغل بهما قليلًا، ولا تجعلهما شغلًا شاغلًا بغير انقطاع.

كلا، لم يكن الإصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات، وإنَّما كان على الدوام مسألة «محور» ينتقل، أو مسألة «باعث» يتغير، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها في مسافاتها ومقاديرها، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعُادبها إلى محورها الذي انحرفت عنه أو إلى محور جديد.

إنَّنا لا ننصف السيد المسيح، بل ننصف أنفسنا حين نعتقد أنَّه كان يدُرك ما يقولوه و يقول: «من أخذ منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء».

أترى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعُطيهما المعطي هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب؟ كلا، ما كان يفوته ذلك ولا ريب، ولا أدنى ريب.

ولكن النَّفس الإنسانية هي المقصود، وليس المقصود هو الرداء أو القميص.

المقصود هو أنْ ترفع النَّفس الإنسانية فوق أشيائها، بمثل من الأمثلة، يصح أن يكون هذا المثل، ويصح أن يكون مثلًا سواه!

فليكن العطاء حبًّا وطواعية، لأن من يعُطي مجبرًا، أو يعطي ما لا يهمه أن يعطيه، يفقد شيئاً ولا يملك نفسه.

وليس كذلك من يعطي لأنه يريد العطاء: إنَّه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه، لأن غنى النّفس يقُاس بما تعطيه، وغنى الجسد يقُاس بما يأخذه، ومن كان لا يبُالي أن يعُطي العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء.

أراد السيد المسيح أن يعبد الإنسانُ سيداً واحداً، ولا يعبد سيدين، وهذا كل ماأراد.

فمن يملك أموال الدنيا غيرَ عابد للمال فلا جُناح عليه.

ومن يعبد لله، ويستعبد المال فلا جناح عليه.

ومن حاول غير ذلك فهو غير مُستطيع، وليس قصاراه أنه غير مشكور أو غيرمأجور.

ونحسب أن النَّهي عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحًا سهلًا بين ما هو مباح وما هو محظور في طلب الدنيا ومتاعها وزينتها. فلا حرج على إنسان يملك المال العريض، وهو لا يعبد المال، ولا يقدم نفسه قرباناً على هيكله. ولا نجاة لإنسان يملك درهمين، ولا ينالهما بغير عبادة المال.

ويحسن بنا على الجملة أنْ نذكر أن السيد المسيح لم يقصد إقامة مجتمع في مكان مجتمع، ولكنَّه قصد إلى تهذيب آداب إنسانية يعتصم به ضمير الفرد وضمير الأمة، وأقامها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها.

فالجسم أفضل من الطعام واللباس.

والإنسان أفضل من السبت.

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم.

ومملكة الضمير في قرارة كل إنسان أبقى من ممالك العروش والتيجان.

وبساطة الإيمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح، وما جرى مجراها في كل زمن، فمِن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم، وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكي تفهم، وعندها في كل آونة سبب لتعطيل كل فهم، وسبب لتعطيل كل عمل، وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور، وهذه الحذلقة التي حالت بين المتحذلقين قديمًا، وبين كل عمل بكل وصية، فليس عندها مستمع لنبي ولا لحكيم.

إن الحذلقة هي التي أبت أن تفهم حين قال القائل: إن العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره. أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه السامع؟ بلى، وفيه نصُح لمن يريد أن يسمع ويعمل، ولكن الحذلقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة: إن الدودة لولم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور.

إن الحذلقة تقول هذا؛ لأنَّها لا تعمل، فهل تراها كسبت شيئاً حين خسرت العمل؟ كلا! فإن سخريتها تستقيم إذا كان التَّأخير أسلم للدود من التبكير، ولكنَّهما يستويان على الأقل، إنْ لم يكن التأخير خليقًا أن يعُرض الديدان لمئات المناقير، ومئات العيون،بدلاً من فرد منقار، وفرد عين!

كذلك يقول السيد المسيح: من طلب منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء، فتقول الحذلقة: ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معًا، ولا يحق لمن يعُطيهما أنيحتفظ بهما في حوزته؟!

أفليس في قول السيد المسيح ما يفهم؟ بلى، فيه ما يفهم، وما يصحح فهماً على ضلال، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم، ولا أن تعمل، ولا تريد إلا ظهوراً «على حساب» الفهم والعمل، كما يقولون، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد في الأمر هو امتحان المعطي الذي يقُتدَى به في الإحسان، وإن طالب الرفد لا خلاف عليه، ولا على قيمة عمله من الفضيلة، وإنَّما الخلاف الذي يحتاج إلى جديد هو قيمة الإعطاء من فضيلة السماحة والإيثار.

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره، والشر، والبغضاء، والنفاق، فحسنٌ - ولاشك - أن تدور على غير ذلك المحور، وإذا انتقلت منه إلى محور القناعة والخير والحبوالصدق، فلا مشاحة في قياس المسافات، ولا تقدير المقادير.

بل نقول إن الرسالة كاملة وافية، ولو لم يكن هذا الانتقال إلى حين وفي حيزمحدود، فإنَّ ما العبرة بإضافة هذه القيم الجديدة إلى حساب الإنسانية، وشأن الإنسانية بعد ذلك وما تستطيع، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كُلما انحرفت الجادة، أو احتاج ضمير الإنسان إلى محور جديد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص: ٥٦ .

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة، ولا سيما الدعوات الدينية الكبرى، ومامن شيء هو أدعى إلى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات، وبين الغايات التي تنتهي إليها دعواتهم على غير قصد منهم، بل على خلاف ما قصدوا إليه،ثمُ يمضي الزمن، وتنطوي المقاصد والغايات، فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها، كأنَّما الدعوات والدعاة معًا وسيلة مُ سخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية، دون أنْ يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لها إلى أين تسير، وإلى أين يسيرون.

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا إلى الدعوة المحمدية، ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين؟

إن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت فاتحة الفتوح الإسلامية، فلو أنَّها ارتفعت من تاريخ الإسلام لَتغير ذلك التاريخ، ولكنَّه لا يستفيد - فيما نعتقد - بزوال ذلك الحادث الذي كان محسوباً من العقبات، بل أكبر العقبات في صدر الإسلام.

وماذا لو أن بني إسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه، وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين؟

كان غاية الأمر أن نبيًّا من الأنبياء يضُاف اسمه إلى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم، وتبقى إسرائيل في عزلتها كما كانت، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ: منسية لا تذُكر، أو تذكر كما تذُكرأصغر القرى التي تحكمها رومة الخالدة، رومة القياصرة والجبارين المتألهين.

فمما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد إسرائيل بدعوته الأولى، ومن البديه أن يرُيدهم قبل أن يرُيد أحدًا غيرهم؛ لأنَّهم عشيرته الأقربون، ولأنَّهم أصحاب الكُتب التي تبُشر بالخلاص، وترقب الرسول المخلص من وراء الغيب.

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم: ماذا تركتم للأمم؟ لأنَّهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع إلى الحق من أبناء الأمم كافة، وهم غير مختارين.

وقد كان يرُسل التلاميذ للدعوة، وينهاهم أن يدخلوا السامرة، ويحُذِّرهم على العموم أنْ يطرحوا اللآلئ تحت أقدام الخنازير.

وعلى رفقه في الخطاب كان ينتهر المرأة الفينيقية التي أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التي يخص بها أبناء يعقوب، لأنَّه ليس بالحسن أن يؤُخذ الخبز من أبناءالبيت ليلُقي به إلى الكلاب.

وكان هذا الإيثار بديهًا كما قلنا من وحي الفطرة ووحي الكُتب والدراسة، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يرُاد لها النَّجاح، فإن المُساواة بين العشيرة الأقربين،وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أنْ تقُصي الأقربين، ولم يكن يقيناً، ولا شبيهًا باليقين، أن تدُني إليه أحدًا من أولئك الغرباء الموتورين الذين يحُاربونه، ويحُاربون قومه، ويبُادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام؟

فماذا لو استجاب المدعوون إلى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال؟ ماذا لواستجابوا بغير عناد وبغير استشهاد؟!

إن استجابوا جميعًا إلى الدعوة، فقد دخلت الدعوة في نطاق «العصبية العنصرية»ولم يتغير بها شيء في غير ذلك النِّطاق المحدود.

وإنْ لم يستجيبوا جميعاً، واستجابت منهم فئة من فئات شتى، فغاية الأمر أنَّها فرقة تضُاف إلى فرق الفريسيين والصدوقين والآسين والغلاة، بل قد حدث فعلًا أن فئة من بني إسرائيل قبلت المسيحية على أنَّها «طائفة يهودية» سُميت بالطائفة «الأبيونية»؛ أي طائفة الفقراء والدراويش، ثمُ ذهبت هذه الطائفة في الغمار، فلا هي إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يبقَ لها نصيبٌ في تاريخ اليهود، ولم يبقَ لها نصيبٌ في تاريخ المسيحيين!

بل حدث فعلًا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس إلى شرق الأردن،واعتزلت كنائس إسرائيل، وأقامت شرقًا حيث تحرم الإقامة على سائر إسرائيل، وظلت ردحًا من الزمن لا هي إسرائيلية خالصة، ولا هي مسيحية خالصة، ثم ذهبت في الغماركما ذهب الأبيونيون.

لقد مر بنا المثل الذي ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين: مثل الأمير الذي أوْلَمَ الولائم، وأرْسَل إلى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أنْ يفرحوا معه،

ويشاركوه في طعامه وشرابه، فلم يجبه منهم أحد، وتعلل كل منهم بعلة تؤُخره إلى ما بعد يوم الوليمة، فأقسم لا يحضرنها أحد بلَغَتهْ الدعوة، وليملأنها بمن حضر،ومن لم يحضر، ومن تزويه الأزقة، أو تقذف به الطريق، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوًا من ضيف، وأصبح كل طارق ضيفًا مقبولاً على الرحب والسعة، وكذا تعمروليمة السماء التي يتأخر المدعوون إليها، ويتقدم إليها من هم أحق بها؛ لأنَّهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون.

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف في دعواهم فأنكروه، وألحفوا في إنكاره: «إن الحجر الذي رفضه البناءون صار على رأس الزاوية، إن ملكوت الله ينُتزع منكم، ويوُهب لأمة تؤُتيه ثماره، من سقط على ذلك الحجر رضه، ومن سقط الحجر عليه سحقه، هناك يكون البكاء وصرير الإنسان، هناك يدعى الكثيرون، ولا ينتخب إلا القليلون».

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلت وصاياه التي يخصبها «الأمة»، ويفردها بين الأمم، وكثرت في وصاياه الآداب الإنسانية التي يستحق بهاالإنسان ملكوت السماوات، فردًا فردًا، كائناً ما كان شأن الأمة التي ينتمي إليها، وفَهِم السامعون من الملكوت أنَّه حق لمن يقصده من بني الإنسان أجمعين.

غير أن ملكوت السماوات لا يفُهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة، بل لا يذكر بلفظ واحد في جميع الأناجيل، فإن مُرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت لله، ومَتَّى يذكره باسم ملكوت السماوات، ويتفق أحياناً أن يذكر في جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الإنسان.

كذلك يبدو من بعض الأقوال أنَّه حاضر على الأبواب، وإن من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الإنسان آتياً في ملكوته (16 مَتَّى.)

ويبدو من أقوال أخرى أن المدى بعيد، وأن الضلال في دعواه طويل الأمد:»لايضلنكم أحد، فإن كثيرين سيأتون باسمي فيضل بهم كثير، وسوف تسمعون بحروب وأنباء، ولا يحين الحين بعد، بل تقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن شتى، وهذه كلها بوادر الأوجاع، ويسلمونكم يومئذ إلى الضيق فتقُتلون، وتبغضكم جميع الأمم في سبيلي، ثم يأتي أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين، وتفتر محبة كثيرين، ولكن الصابرين إلى المنتهى ينجون، ويُنادَى ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم (24 مَتَّى.)

وأحياناً يأتي الكلام عنه كأنَّه قريب، ولكنه مُفاجئ مجهول الموعد: «اسهروا إذن، لأنَّكم لا تعلمون في أيَّة ساعة يأتي ربكم، ولو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق ما سرق، فاستعدوا أنتم كذلك؛ لأنَّه في ساعة لا تخطر لكم يأتي ابن الإنسان».

ومن النبوءات ما يقول إن ابن الإنسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مُرقس)، وإن بوادره وشيكة أنْ تظهر في هذا الجيل.

ويشُار إلى الملكوت أحياناً بمعنى مشيئة لله وأوامره وفرائضه: «اطلبوا أولاً ملكوتلله وبره» (6مَتَّى) وقد أعطى لكم أنْ تعرفوا ملكوت السماوات»13 مَتَّى» وأحياناً يطُلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح:»أجعل لكم ملكوتاً كما جعل لي أبي»، ويقول لوقا»: إن التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيدَّ المسيح ذاهب إلى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال(19 لوقا).

وقد رأينا في كتب التعليقات والتفسيرات أن هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثيرالبلبال بين ذوي الآراء، كأنَّها أمر غير منتظر في تقديرهم، وهي في اعتقادنا أقرب شيء إلى البداهة وطبائع الأمور.

فيجب أنْ نقُدر أولاً أن السيد المسيح قد أشار حتماً إلى الملكوت الذي يفهم كل سامع أنَّه هو العالم الآخر، وأنَّه يأتي في نهاية هذا العالم، وأنَّه إذا أشار إلى ذلك الملك وترجع السامعون بالبداهة إلى النبوءات التي جعلت له علامات، وإلى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة، أو نهاية الألف السادسة، واختلفوا هل يأتي المسيح المرتقب ثم تعود، أو ينتهي العالم الأرضي بمجيئه، ولا يكون مرجعه بعد ذلك في هذا العالم الأرضي المعهود؟!.

وطبيعي جدا أنْ يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى، وأنْ يرجع السامعون إلى تلك النبوءات، ولا موضع للاستغراب في هذا الصدد، بل الغريب أنْ يخلوكلام السيد من هذا النذير، سواء ظهر في ذلك الوقت، أو ظهر بعده في زمن تتطلع فيه الأنظار إلى النهاية، وإلى تحقيق النذر، والبشائر، والعلامات.

فإذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى في تقديرنا، فليكن في الحساب أنَّه بابٌ من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى، ولا سيما الملكوت الذي تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة، كما هو الواقع في جميع الرسالات.

ففي رسالات الأنبياء الداعين إلى العالم الآخر جميعاً ملكوت رضوان يتحقق في السماء، وملكوت يعمل له النَّاس في هذه الحياة، أو رسالة يستمعون لها في هذا العالم، فيستحقون بها الملكوت في العالم الآخر.

هذا الملكوت أيضاً – ملكوت الرسالة المسيحية، أو ملكوت ابن الإنسان – يقع في البال حتمًا أن السيد المسيح قد تكلم عنه، ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه.

ولا بد من لبس هنا مع اللبس الذي يحدث من توجيه المعنى حيناً إلى ملكوت القيامة، وتوجيهه حيناً إلى الملكوت قبل يوم القيامة.

أما اللبس في فَهْمِ الملكوت الذي يدور على الرسالة المسيحية – أو رسالة ابن الإنسان – فمرجعه من جهة إلى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها، فالملكوت في الدعوة التي يخص بها الإسرائيليون غير الملكوت في الدعوة التي لا يخصون بها، بل لعلهم يطردون منها، وتعم الأمم أجمعين.

ومرجع اللبس من جهة أخرى إلى سمو الرسالة على مدارك السامعين، ولا مناصٍّ من هذا اللبس إذا دعي السامعون إلى رسالة أسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا أن يفهموه.

ولا نرى أن المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح، وبين نفوس التلاميذ والأتباع، قد برزت في موضع من المواضع بروزها في الأسئلة التي توالت منهم عليه، وفي الحيرة التي دلت عليها هذه الأسئلة، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى ليفهم معنى الملكوت الذي يستدعي من الإنسان أن يولد ولادة ثانية، ويدخل إليه إنساناً جديدًا كما يدخل الطفل الوليد إلى هذا العالم، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها، ظلَّ التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتي بدولة بني إسرائيل: «فسألوه قائلين: يا رب! هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل؟ فقال لهم: ليس لكم أنْ تعرفوا الأزمنة والأوقات التي أودعها الأب سلطانه، لكنَّكم ستنالون قوة مَتىَ حل عليكم الروح القدس، وستكونون شهداء لي في أورشليم، وفي اليهودية جميعاً، وفي السامرة، وإلى أقصى المسكونة».

ونعود فنقول إن اللبس طبيعي جدا في هذا الموقف بين مقصد المتكلم، ومدارك السامعين، وإن هذا التفاوت البعيد هو الذي يؤُدي بنا إلى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح، لأنَّه ملكوت لم يكن في طاقة التلاميذ أنْ يخلقوه ويصوروه، وكل مافي استطاعتهم أنْ

يذكروا له أوصافًا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظًا من لغة لا يفهمها، فإذا أمكننا بعد ذلك أن نخُرج تلك الألفاظ مُفردات مُتناسقة مفهومة على صورة واحدة، فتلك هي الآية على صحة تلك الصورة، وإنَّها هي الوصف المقصود.

والأناجيل قد ذكرت وصفًا متناسقاً للملكوت في مواضع شتَّى: ذكرت مملكة ليست من هذا العالم، وذكرت مملكة قائمة في ضمير الإنسان في كل زمان، إذا ربحها فهوالغانم، وإذا خسرها فالعالم كله لا يجديه، وذكرت مملكة لا يدخلها الإنسان إلا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البريء، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف؛ لأنَّه ما بالسيف يؤُخذ فبالسيف يضيع «ولما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله؟ أجابهم: إنه لايأتي بمراقبة، ولا يقول قائل هو ذا هاهنا، وهو ذا هناك، لأنَّه هو الآن في داخلكم» (17لوقا).

فالذين استغربوا الأوصاف، ولم يروا فيها إلا التناقض والشكوك! ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة؟ وعلى أيَّة صورة كانوا ينتظرون أنْ تأتي غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ، ومع حضور الملكوت في أذهان السامعين بمعنى القيامة، ووروده أحياناً في كلام السيد المسيح بهذا المعنى؟ بل كيف كانوا ينتظرون أنْ تأتي على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورًا لابد منه بين كلام موجه إلى أمة خاصة، وكلام موجه إلى جميع الأمم؟

إن الخُلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب، ولكن العيب في الغربال الذي لا يعمل عمله، وفي حامل الغربال الذي ينسى أن الغربال لازم، وأن موضع لزومه على التخصيص.

إذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية، ووضع أمامنا خطوطًا وأشكالاً، وتسنيلنا أنْ نخُرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة، وتلك الصورة إذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذي يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه.

تحولت الدعوة من خاصة إلى عامة، ومن أمة واحدة إلى سائر الأمم، بل إلى«الإنسان» فردًا كان، أو عنواناً يشمل كل إنسان.

وحدث هذا التحول والعالم الإنساني متهيئ للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه، وإنْ لم يكن يسيراً عليه أنْ يفهمها حق فهمها، أو يسبر أغوارها.

والعالم الإنساني يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته إليها، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج إليها، أو إلى شيء من قبيلها.

مثله في ذلك مثل التربة التي ينفعها المطر، لأنَّها مُهيأة له متعطشة إليه، ولا محلهنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار.

كانت العلاقة العالمية، أو العلاقة الإنسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام، ولكنَّها قد وجدت في بقاع من الأرض، ولم توُجد في سرائر الضمير، ولعل النَّاس قداختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبية، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة، ويتطلعوا من ورائها إلى الأخوة والصفاء.

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أنْ تتحطم أمام دعوةالأخوة والصفاء، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لأنُاس من جميع العصب والسلالات، لاَّ يشعرون بينهم بوحدة غير العبودية والضنك، إما في ربقة الرق الصراح، أو في ربقة أخرى لا تقل عنها في القوة والنِّقمة، وهي ربقة الحرمان والقنوط.

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثني عن رسول يجمع الأقوام إلى دينَّ واحد؛ لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلاً تملؤهم الحماسة الروحية، وتفيض منهم على من حولهم فضلاً عن البعيدين عنهم، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيًّا تجرد للتبشير والإنذار غير حافل بالموت، ولا مُرتدع بما يلقاه من زواجر الإرهاب والوعيد، وكل ما يحدث في الأديان الوثنية أنْ تغلب الدولة التي تدين بها على الشعوب المقهورة، فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها، وتفرض عليها العبادات التي تتصل بالشعائر العامة، والمحافل الرسمية، ثمُ تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام.

أما الحماسة الروحية التي كانت لازمة لتوحيد العقيدة في العالم الإنساني، فلم تعهد قط في غير الأديان الكتابية، أو الأديان الإلهية، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بإله أعظم من الدنيا، وأعظم من الدول، وأعظم من كل موجود.

ولحكمة من الحكم الخالدة، وُجد هذا الرسول مطرودًا في قومه، ولم يوُجد بينهم مقصور الدعوة عليهم، فوجد فيه العالم بغيته في ساعة الحاجة إليه، وإنَّها لآية من الآيات التي يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين، لأنَّها من التوفيقات التي يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير.

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدي الوثنية في صولتها وسلطانها، فإن الوثنية تتغلب، لأنَّها دين الدولة الغالبة، أما هذه الرسالة – رسالة الملكوت السماوي– فقد نشأت في عشيرة قبيلة ذليلة، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية، فلم يمضِ غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين،واستولت على العاصمتين، وصح ما رووه عن جوليان – سواء قاله أو لم يقله – فانتصر «الجليلي» بملكوته السماوي على ممالك القياصر، وضم القياصر إلى حاشيته، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر، وما أخذوه باسم الله!